عقيدة الفلاسفة في علم الله عز وجل

أ. د. محمود مزروعة
عميد الكلية

يتردد الفلاسفة فيما يعتقدون من ثبوت صفة العلم لله ـ سبحانه وتعالى ـ بين مذهبين.

المذهب الأول

يقرر أن الله ـ سبحانه تعالى عما يقولون علواً كبيراً ـ لا يعلم من شأن هذا الوجود شيئاً قط. ولكنه يعلم ذاته فقط، أو يعقل ذاته فقط، أما ما سواه من عالم أو عوالم فلا يعلم عنها قليلا ولا كثيراً، ولا يدرى من شأنها وجوداً أو عدماً.

وهم يقررون هذه العقيدة فيقولون:

١ ـ إن الله ـ عز وجل ـ عقل محض، لأن العقل هو أسمى الموجودات وأعلاها وأتقاها، لذلك كان الله ـ سبحانه ـ عقلا محضا، بل هو أكمل العقول ومبدؤها، وعنه تصدر أو صدرت العقول في نظريتهم المعروفة بنظرية الصدور، والتي يوضحون بها العلاقة بين الله ـ تعالى ـ والعالم.

٢ ـ وإذا كان الله تعالى ـ عقلا، فهو عاقل. لأن العقل وظيفته أن يعقل، والغاية منه أن يكون عاقلا، ولا قيمة لعقل لا يعقل، لأنه في هذه الحالة يكون قد فقد شرفه، ولم يحقق الغاية من وجوده. إذ أن شرف كل موجود إنما يكون في القيام بوظيفته، وتحقيق الغـــاية من وجوده.

فشرف العقل فى أن يكون عاقلا . والله ـ سبحانه عما يقولون ـ هو العقل الأكمل ، وهو مبدأ المعقول ، فلابد أن يكون عاقلا .

٣ — وإذا كان الله ـ تعالى عما يقولون ـ عقلا ، وكان ذلك العقل عاقلا ، فأى شىء يعقل ؟ أو ما الموضوع الذى يعقله ؟ أو ما الشىء الذى يكون موضوعا لعقل الله ـ تعالى ـ ؟

هل يعقل الله ـ تعالى ـ ذاته فقط ؟ ولا يعقل غيره ؟

أو يعقل غيره من الموجودات فقط ؟ ولا يعقل ذاته ؟

أو يعقل ذاته ، ويعقل غيره من الموجودات معاً ؟

يجيب الفلاسفة عن هذه الأسئلة بأن الله ـ تعالى عما يقولون ـ لا يعقل إلا ذاته فقط ، ولا يعقل شيئاً من الموجودات على الإطلاق .

وإذا ما سألناهم : لماذا لا يعقل الله ـ تعالى عما يقولون ـ إلا ذاته فقط؟ ولماذا لا يعقل الموجودات كلها ؟

أجاب الفلاسفة بأن الله ـ تعالى ـ كمال مطلق ، وجمال مطلق ، وخير مطلق ، والموجودات سوى الله ـ تعالى ـ أقل منه كمالا أو هى ناقصة ، فلو عقلها الله ـ تعالى ـ أى حلت فى عقله ، أى أصبحت موضوعاً حالا فى عقله وهى ناقصة . فإن هذا يعنى أن النقص حل فى ذات الله ، لأن الله تعالى ـ عقل ـ وقد عقل ذلك العقل الأشياء الناقصة . فيكون النقص قد حل أو وجد فى ذات الله . وذلك محال ، لأن الله ـ سبحانه ـ منزه عن النقص ، والله ـ تعالى ـ منزه عن النقص بوجهيه المعروفين :

١ — فهو ـ تعالى ـ منزه عن النقص فى ذاته ، وذلك بأن تكون ذاته ناقصة .

٢ — وهو ـ تعالى ـ منزه عن الاتصال بالنقص ، بأن يكون محلا للنقص .

وإذن ، فإن علم الله - تعالى - بالأشياء يؤدي إلى حلول النقص في ذاته أو كونه محلا للنقص ، وذلك محال وهو باطل . فبطل ما أدى إليه ، وهو كونه - تعالى - يعلم غيره أو عالما بغيره . وثبت نقيضه وهو كونه - تعالى عما يقولون علوا كبيراً - لا يعلم إلا ذاته ، ولا يعلم شيئاً في الوجود قط .

اتضح مما سبق أن عقيدة الفلاسفة : أن الله - تعالى عما يقولون - لا يعلم إلا ذاته - وأنه - تعالى - عقل - وهذا العقل عاقل ، وهذا العقل العاقل لا يعقل إلا ذاته أو نفسه . وبذلك وصف الفلاسفة الحق - سبحانه وتعالى - بأنه : عقل ، وعاقل ، ومعقول .

ذلكم هو مذهب الفلاسفة ، أو هو دين الفلاسفة الذي يدين به معظمهم ، بل هو المذهب أو الدين الذي يدينون به جميعاً بلا استثناء . فهذا الذي أوضحناه هو دينهم وعقيدتهم ، ويأتي ما سواه من المذاهب في هذا الباب من باب التورية والتعمية ، حتى لا يكشف الناس ضلالهم وزيفهم ، ويعروهم من لباس الإيمان الزائف الذي يتزيون به ويلبسونه أمام الجماهير المؤمنة .

ونحن لا نتجنى على القوم ، ولا نفترى عليهم ، ولكن مذاهبهم التي التزموا ، وعقائدهم التي اعتقدوا ، والبناء الفلسفي الذي بنوا ، كل هذا لا يستقيم إلا بناء على حقيقة أن الله - تعالى عما يقولون ويعتقدون - لا يعلم إلا ذاته فقط ، ولا يعلم من الوجود قليلا ولا كثيراً ، ونحن نضرب لذلك مثلا بقضيتين من القضايا الأساسية في فلسفة القوم :

الأولى : عقيدتهم في علاقة الله - تعالى - بالعالم ، وكيفية وجود هذا العالم عن الله - سبحانه - .

فهم يعتقدون بنظرية تسمى « نظرية الصدور » أو « نظرية الفيض » . وهي نظرية يفسرون بها ويوضحون كيف وجد هذا العالم عن الله ،

ويعتقدون بأن الله ـ تعالى ـ لم يخلق العالم بإرادته وقدرته ، ولم يدبره بعلمه وحكمته . ولكنهم يؤمنون بأن العالم « صدر » عن الله ـ تعالى ـ كما تصدر الحرارة عن النار ، والضوء عن الشمس ، وهذا يعني أن الله ـ تعالى عما يعتقدون ـ لم يخلق العالم عن إرادة ولا قدرة ولا علم .

الثانية . قولهم بأن الله ـ تعالى عما يقولون علواً كبيراً ـ فاعل بالعلة ، وليس فاعلاً بالاختيار .

وهم يعنون بهذا نفس المعنى السابق . من أن الله ـ تعالى عما يقولون ـ لم يخلق الأشياء بحكمة وعلم وإرادة وقدرة ، وإنما هو علة لها ، والعلة التامة إذا وجدت صدرت عنها معلولاتها دون إرادة أو مشيئة أو علم .

هذان المثالان من عقائد القوم وقضايا فلسفتهم الأساسية ، تثبت أن عقيدة القوم التي لامراء فيها : أن الله ـ تعالى عما يعتقدون ـ لا يعلم إلا ذاته فقط ، ولا يعلم ما سواها .

• • •

المذهب الثاني :

ويقررون فيه أن الله ـ تعالى عما يقولون ـ يعلم الموجودات كلها ، ولكنه يعلمها بصورة كلية شاملة .

وهم يعنون بذلك أن الله ـ تعالى عما يعتقدون ـ يعلم الأشياء بقوانينها العامة الكلية المتصلة بالأجناس والأنواع والأشخاص أيضاً ، ولكن بعيداً عن الزمان والمكان والهيئات والأحوال ، ـ فالله تعالى ـ يعلم بوجود سموات ، وأرضين ، وأجناس من المخلوقات وأنواع ، منها البشر ، وأن من البشر مؤمنين وكافرين ، وأن منهم يبعث أنبياء ، ومن الأنبياء من اسمه محمد ـ ﷺ ـ

لكن هـذا العلم هو على هيئة كلية شاملة ، لا ترتبط بزمان ولا مكان ولا هيئة؟ ولا حال . فلا يدخل فى علم الله - سبحانه - العلم بأزمنة الأشياء وأمكنتها ، فالله — تعالى — لا يعلم إن كان محمد - عليه الصلاة والسلام — قد بعث ، أو أنه لم يبعث ، أو أنه الآن مبعوث . ولا يعلم هل هاجر رسول الله محمد - عليه السلام - من مكة إلى المدينة؟ أو أنه لم يهاجر بعد . ولا يعلم على أية هيئة كان هذا النبى العظيم ولا ما كانت أحواله . هذه الأشياء وغيرها لا يعلمه الله ، أو هو لا يدخل فى علم الله . وليت شعرى ، إذا كان الله تعالى فيما يعتقد القوم — يجهل زمان محمد — ﷺ — ولا يعلم متى يوجد ، ومتى يرحل ، ومتى يهاجر ومتى يستقر ، وأين يهاجر وأين يستقر ؟

إذا كان الله تعالى — يجهل كل شأن محمد - ﷺ - فكيف عنى به ؟

وكيف رعاه وحفظه؟ وكيف عصمه من الناس كما وعد — سبحانه — فى قوله : [والله يعصمك من الناس] .

• • •

أدلة الفلاسفة على مذهبهم :

لقد ذكر الفلاسفة أدلة كثيرة على صحة ما ذهبوا إليه من نفى علم الله - تعالى - وإنكار ثبوت صفة العلم لله - عز وجل - .

أما أدلتهم على المذهب الأول :

فلقد ذكرناها فى سياق الحديث عن المذهب ، وهو ادعاؤهم أن علم الله تعالى — بالأشياء يلحق النقص به — سبحانه — ، وأن كمال الله — تعالى — لا يكون إلا فى أن يعلم ذاته فقط ، ويجهل كل شىء عما سواه ، بل ويجهل ما سواه أصلا .

وإن تعجب فعجب كيف عميت أبصار هؤلاء القوم وبصائرهم حتى عكسوا الأشياء، فرأوا الكمال نقصا، والنقص كمالا؟ كيف رأوا الكمال لا يتم إلا بجهله — سبحانه — كل شيء، وكيف رأوا النقص في أن يعلم كل شيء؟ كيف تعمى بصيرة الإنسان حتى يرى الجهل كمالا، والعلم نقصا؟ بل كيف سوغت لهم أنفسهم أن يثبتوا لأنفسهم العلم، ويثبتوا لله تعالى نقيضه، بل كيف قبلوا أن يصفوا الله — تعالى — بما لو وصف به أحدهم لغضب واجتهد في أن ينزه نفسه عنه؟ إن هذا الشيء عجاب.

* * *

وأما أدلتهم على المذهب الثاني:

فقد ذهبوا إلى أن ارتباط علم الله — تعالى — بالزمان والمكان والهيئات يؤدي إلى تغير عليه — سبحانه — تغيراً مستمراً، أو يؤدي إلى أن يتحول علم الله، إلى جهل، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً — أما كيف ذلك؟

فقد زعموا أن الله — تعالى — إذا علم شيئاً من الأشياء أنه سوف يوجد، فحين يوجد ذلك الشيء ويصبح في حيز الوجود فعلا، فإن علم الله — تعالى — بأنه «سوف» يوجد سيكون مغايراً للواقع، لأن الشيء موجود فعلا. وحين يفنى الشيء وينتهي فعلا فسوف يكون قد وجد وانتهى ويكون علم الله — تعالى — السابق بأن الشيء «سوف» يوجد مغايراً للحقيقة. وإذا ما نظرنا في شأن محمد — ﷺ — فإن علم الله — تعالى — قبل وجود محمد ﷺ يكون: «سوف يوجد»، وحين وجد محمد وصار كائنا، فإنه موجود، ثم بعد موته ﷺ فإنه كان موجوداً.

قالوا إن ارتبط علم الله سبحانه، بالزمان، فإما أن يظل على حال واحدة لا يتغير، وهذا حق، لأنه ثابت. ولكنه سوف يكون مغايراً للواقع، أو يكون جهلا لا علما، لأنه إن كان يعلم محمداً ﷺ على أنه

سوف يوجد، ثم ثبت على ذلك، فإن محمداً قد صار موجوداً، ثم انتهى وجودة. فعلمه السابق الثابت بأنه «سوف يوجد» مغاير للحق، وإذن فليس علما، بل جهل - تعالى الله عن ذلك -.

وإن ارتبط علمه - تعالى - بالزمان، ثم تغير بتغير الزمان، بأن علم أن محمدا - ﷺ - سوف يبعث، ولما بعث محمد ﷺ ذهب العلم السابق، وجد علم جديد بأن محمداً ﷺ موجود مبعوث، وحين مات محمد ﷺ انقلب علم الله وتغير إلى أن محمداً ﷺ كان موجوداً، كان مبعوثا، إذا حدث ذلك فالعلم صحيح مطابق للواقع، ولكنه غير لائق بكمال الله - تعالى -. فإن الله - سبحانه - ليس محلا للحوادث. ولا تتغير صفاته، وعلمه ثابت لايقع فيه تغير ولا تبدل.

وبمثل ذلك احتجوا على استحالة ارتباط علم الله - تعالى - بالمكان والهيئات.

وقد ضل هؤلاء القوم ضلالا بعيداً، وقد وقعوا فى الضلال البعيد بسبب أنهم قاسوا الغائب على الشاهد. وحكموا فى علم الله - سبحانه - بما يحكمون به فى علومهم، فى علوم البشر، ووزنوا علم الله - سبحانه - بما يزنون به علومهم، وأخضعوا الله - سبحانه - لنفس القوانين التى يخضع لها البشر فى علومهم، بل وكافة أحوالهم.

من هنا فقد أغرقوا فى الضلال فى هذه القضية، قضية علم الله - سبحانه - كما أغرقوا فى الضلال فى قضايا كثيرة، وذلك كله بسبب أنهم يقيسون الغائب على الشاهد، ويطبقون قوانينهم على خالق القوانين - سبحانه -.

والحق أن هذا الذى ذكروه صحيح تماما بالنسبة إلى علم الإنسان، أو علوم البشر. فعلم الإنسان معلول للأشياء والأحداث، وهو علم جزئى يرتبط بكل شيء على حدة. ويتغير بتغير الحوادث والوقائع زماناً

ومكانا وأحوالا . لأنه تابع للأحداث ومعلول لها وفرع عنها . فالإنسان لا يعلم الشيء إلا بعـــد وجوده ، ولا يعلم من أحواله إلا بعد حلولها ووقوعها ، وكلما جدت حال ، جد لها عند الإنسان علم جديد .

أما علم الله سبحانه فهو بريء من هذه النواقص ، هو علم كامل مطلق يشمل الأشياء كلها ، وهو علة فى وجود الأشياء ، ووجود أحوالها ، وكل ما يتصل بها . وهو أزلى وليس بحادث . وعلم الله ليس متجزئا حسب الأزمنة والأمكنة والأحوال ، ولكنه علم واحد شامل ، به يعلم الله — تعالى — الشيء متى لا يكون ، ومتى يكون ، ومتى يفنى ، والإنسان لا يكون معدوماً إلا بسبب علم الله أنه يكون معدوماً ، ثم لا يخرج من حيز العدم إلى الوجود إلا لعلم الله — تعالى — بأنه يوجد فى زمانه ومكانه . ثم يفنى بناء على علم الله الأزلى أنه يفنى فى مكانه وزمانه .

فعلم الله — سبحانه — أزلى . وهو شامل للأشياء قبل وجودها .

وقد سبق علم الله بالأشياء ذواتها وأحوالها وأمكنتها وأزمنتها ، فلا يوجد شيء إلا حسب ما علم الله بوجوده فى زمانه ومكانه وأحواله . هذا هو الفيصل فى القضية .

• • •

بان لنا مما سبق عقائد الفلاسفة فى ثبوت العلم لله — جل وعلا — وأنهم يترددون بين مذهبين : أحلاهما مر وأصلحهما كفر . وليس من المذهبين مذهب حلو ولا صالح ، وقد بان لنا أيضاً أنهم يدينون بمذهب واحد من الاثنين ، ولكنهم يورون بالثانى ويتخفون وراءه ، فهم يؤمنون بأن الله — تعالى عما يقولون — علة فى وجود الأشياء ، والعلة لا تعقل ما صدر عنها ، ولا تملك من أمره ، بل لا تملك من أمر نفسها شيئاً ، فهى فاعلة قسراً وكرها دون ما إدراك أو علم أو إرادة أو اختيار .. الخ .

وقد شبهوا صدور العالم عن الله ـ تعالى ـ بصدور الحرارة عن النار ، والضوء عن الشمس ، وكلاهما لا يملك من أمر نفسه وما يصدر عنه شيئاً ، وكذلك الله ـ تعالى عما يعتقدون ـ عند الفلاسفة .

ولأنهم يؤمنون بأن الله ـ تعالى ـ علة ، وأن الأشياء صدرت عنه ـ تعالى ـ صدور المعلول عن علته ، فقد اعتقدوا بأن العالم قديم ، لأن علته قديمة . وما دامت العلة قديمة فالمعلول قديم . لأن المعلول لا ينفصل عن علته زمانا أو بالزمان .

وهذه عقيدة القوم فى صفة العلم لله ـ سبحانه ـ وهى عقيدة باطلة فاسدة سواء على المذهب الأول الذى يمثل عقائد القوم حقيقة ، أو على المذهب الثانى الذى أرادوا التملق به أمام الأمة المسلمة ، فإذا هو وسابقه صنوان فى الزيف والضلال والكفر .

فقد أثبتوا لله علما بالأشياء ، فى المذهب الثانى ، لكنه علم هو والجهل سواء ، علم به يصير المخلوق أعلم من الخالق ، علم كلى لا يدرى عما يجرى فى عوالم الله شيئاً ، ولا صلة له إلا بما سموها « كليات » . وهذا تلاعب بالألفاظ ، والتواء بالأساليب ، محصلته النهائية هى نفى العلم عن الله ـ جل وعلا ـ .

وبذلك يكون القوم قد وقعوا فى حمأة الكفر ، لأنهم خالفوا صريح الكتاب ، وصحيح السنة ، وإجماع المسلمين . بل وخالفوا بداهة العقل ومسلمات الفطرة .

لقد كفروا بقول الله ـ سبحانه ـ فى القرآن العظيم :

[وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين] [سورة الأنعام : ٥٩]

وقول الله سبحانه :

[يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء]
[البقرة . بعض آية ٢٥٥]

وقول الله عز وجل :

[ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير] « سورة الملك : ١٤ »

حقيقة القوم — إذن — أنهم مكذبون بصريح القرآن ، والسنة ، والإجماع . وموقف المسلم منهم لا يحتمل ترددا ولا شكا .

نعوذ بالله من الكفر بعد الإيمان ، ومن الضلال بعد الهدى

* * *